قراءة نقدية لدور المثقف العربي في خضل التحولات الاجتماعية

▪ د. مهورباشة عبد الحليم
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة سطيف 02
bacha@hotmail.fr

الملخَّــص:

هدفت هذه المقالة العلمية إلى تقديم قراءة نقدية لدور المثقف العربي في خضم التحولات الاجتماعية، التي تخبر بها المجتمعات العربية المعاصرة، وسعت إلى تبيان عناصر مفهوم المثقف العربي. كما حاولت أن تحدد الأسباب الظاهرة والخفية التي أدت إلى فقدان المثقف العربي لفعاليته داخل المجتمعات، وأرجعتها الدراسة إلى طبيعة العلاقة المتشنجة التي تربطه بالسلطة السياسية، وكذلك، طغيان البعد الأيديولوجي على خطاباته، الأمر الذي أدى إلى تشكيل وعي سلبي للمثقف بقضايا مجتمعه، وإسهام وسائط الاتصال الحديثة في الحد من دوره ووظيفته في الفضاء العمومي.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، المثقف العربي، النقد، المجتمع، الايدولوجيا، الوعي الاجتماعي.

Résumé:

Cet article vise à fournir lecture scientifique critique du rôle de l'intellectuel arabe dans le milieu des transformations sociales, qui raconte les sociétés arabes contemporaines, et a cherché à identifier les éléments de la notion de l'intellectuel arabe. Comme je l'ai essayé de raisonner ensembles et phénomène caché qui a conduit à la perte de l'intellectuel arabe à son efficacité au sein des communautés, et retourné par l'étude de la nature de la relation troublé avec laquelle son pouvoir politique, ainsi que, la tyrannie de la dimension idéologique des discours, qui a conduit à la formation de la conscience négative des questions de la société, et la contribution des médias de communication moderne pour réduire le rôle et la fonction de l'intellectuel dans l'espace public

Mots-clés : Culture, intellectuels arabes, la critique, la société, l'idéologie, la conscience sociale.

Abstract :

This article aims to provide critical scientific reading of the role of the Arab intellectual in the midst of social change, which tells contemporary Arab societies, and sought to identify the

elements of the concept of the Arab intellectual. As I tried to reason together and hidden phenomenon that led to the loss of the Arab intellectual to its effectiveness in the communities, and returned through the study of the nature of the troubled relationship with which its political power, and the tyranny of the ideological dimension of discourse, which led to the formation of conscience the negative issues of the company culture, and the contribution of modern communications media to reduce the role and function in the public space .

Keywords : Culture, Arab intellectuals, critics, society, ideology, social consciousness.

مفتتح إشكالي

توصل فيلسوف التاريخ الانجليزي أرلوند توبني في دراسته الضخمة حول التاريخ الإنساني إلى صياغة قانون للتطور التاريخي مفاده؛ أن نشأة الحضارات وزوالها مرتبط بعاملي التحدي والاستجابة، وتحدد الأقلية المبدعة نوعية الاستجابات لطبيعة التحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية، وعبر بعض الباحثين عن مفهوم هذه الأقلية المبدعة بمفهوم المثقفون – نخبة المجتمع وصفوته. بينما تكشف الأوضاع الراهنة أن الأدوار المنوطة بهذه الفئة(المثقفون) عرفت انزياحات وتبدلات، بسبب مفاعيل العولمة وأدواتها ممثلة؛ في الميديا والوسائط الجديدة، حيث أصبحت هذه الأدوات تشغل الفضاء العمومي وتستحوذ عليه، راسمة الخرائط الإدراكية للإنسان المعاصر، مما أثر سلبيا على دور المثقفين في مجتمعاتهم وأوطانهم.

من هذا المنطلق، يطلعنا الدرس الفلسفي المعاصر أن عهد السرديات الكبرى، التي تغنى بها فلاسفة المشروع التنويري، وكل مثقفي المجتمعات الذين تأثروا بالحداثة الغربية، انتهى بلا رجعة على حد تعبير ليوتار، فلم تعد مقولات الحرية والذاتية والعقلانية مقولات ذات جاذبية، بل أصبحت مقولات زائفة بسبب طغيان الشيئية والرأسمالية المفرطة. مات مفهوم الإنسان على حد تعبير ميشال فوكو في الخطاب الفلسفي، ومعه أيضا خفت الخطاب

الأيديولوجي الذي ظل وقود المثقف الغربي طيلة أزمنة الحداثة. كان يرسم المثقف بخياله الفسلفي والعلمي عوالم يوتوبية محاولا إقناع أفراد المجتمع بها والانخراط فيها، ولم يعد بإمكانه اليوم الحديث عن عالم أفضل أو غد مجيد. بل أصبح المثقفون كفئة اجتماعية في حد ذاتهم على مشرحة النقد، بعد أن ظل المثقف لعقود زمنية يمارس من منطلق استعلائي نقده على الأشياء الخارجية المحيطة به، أصاب اليوم الوهن فكره وأدواته ومشروعاته، في ظل تحولات متسارعة تخبر بها المجتمعات الإنسانية المعاصرة.

في حين، يكتسي التساؤل عن دور المثقف العربي في العالم العربي، في ظل التحولات السياسية والاجتماعية التي عرفتها المجتمعات العربية في السنوات الأخيرة، أكثر من دلالة رمزية وأكثر من مشروعية معرفية، لأن الواقع المتغير والهيولي والفائق السيولة وما يحمله من تغيرات تحمل على الدهشة، أصبح المثقف العربي عموما يقف أمامها حائرا عاجزا، وهو الذي كان من المفترض أن يكشف عن هذه التحولات ويوجهها، مستخدما في ذلك عدته المفهومية والمنهجية.

وتكشف العديد من الأحداث التي تقع في العالم العربي، أن المثقفون هم آخر من يدركها، لذلك، ألا يمكننا اليوم الحديث عن تناهي المثقف العربي؟ أم أن الأمر يستدعي القيام بمسائلة نقدية لعلاقة المثقف بالواقع وبذاته وبأدواته الفكرية قبل إصدار هذا الحكم القاصي عليه؟ فبعد معركة التحرير التي خاضها المثقف العربي في منتصف القرن الماضي وحقق انتصارا فيها باقتدار، نعود اليوم إلى ذاته متسائلين وموصفين دوره ووظيفته بعد أن فشل في رسم معالم مشروع نهضوي عربي، فأصبح يعاني من محنة مزمنة، من جهة يحتفى بعقله ومقدرته الفكرية ومن جهة أخرى يستخف

بمشاريعه و أفكاره، وفق مفارقة عجيبة تكشف عن جدلية الثقافي والسياسي في العالم العربي.

وتتمحور التساؤلات الراهنة حول شرعية المثقف العربي وحول شرعية وظيفته، بعد أن كان التساؤلات حول شرعية مشروعه الفكري والثقافي والسياسي، وإن التساؤلات التي تطرح بقوة؛ هل المثقف العربي من وضع ذاته في هذا المأزق، بعد طغيان المنظورات الأيديولوجية على أفكاره ومعارفه ومناهجه؟ ما إن أفلت في الحقل المعرفي الغرب حتى أفل معها خطابه؟ أم أن السلطوي وممارسته الاقصائية هي التي وضعت المثقف على هامش التاريخ والحدث؟ أم أن المحيط المجتمعي وعدوانيته، ورفضه للتغيير هو من وضعه في موقع الازدراء؟ أم أن من انتحل صفاته النقدية، أين أغرق الواقع بنماذج لمثقفين مزيفين وانتهازيين، حجبت صورة المثقف النقدي الحقيقي، فحدت من فاعليته الاجتماعية وأفقدته مصداقيته؟

تأتي هذه المقالة العلمية المتوسلة بالمنهج التحليلي النقدي، لترسم معالم نقدية لوضعية المثقف العربي، ومتسائلة عن دوره ووعيه في هذه اللحظة التاريخية التي تمر بها المجتمعات العربية، وتسعى للإجابة على التساؤلات التالية: ماهو مفهوم الثقافة عموما، ومفهوم المثقف العربي خصوصا؟ وما وظيفة المثقف في المجتمعات العربية المعاصرة؟ وما طبيعة علاقته بالنظم السياسية في العالم العربي؟

مفتتح إشكالي.

1- تحديد المفاهيم.

2- علاقة المثقف العربي بالسلطة السياسية.

3- الخطاب الأيدلوجي للمثقف العربي.

4- وعي المثقف العربي بقضايا مجتمعه.

خاتمة

1- تحديد المفاهيم:

1-1-مفهوم الثقافة:

تطلعنا المعاجم والموسوعات العلمية على دلالات عديدة لمفهوم الثقافة، فيشير معجم لعلم الاجتماع أن هذا المصطلح" يشتق من كلمة (cultura) اللاتينية (المشتقة بدورها من كلمة colere) وهو ينطوي على أعلى مستوى من التعبير الإنساني ... ينطوي مصطلح الثقافة على دلالات متعددة، وينطبق على الأعمال الميدانية كما على الانجازات الفكرية كما على التمرين الجسدي، وعلى علم الأحياء كما على الآداب والإنسانيات"[1]. ويتعدّد مفهوم الثقافة بتعدد العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تناوله،" فالثقافة بالمعنى العام هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق، وحس انتقادي ، وحكم صحيح، أو هي التربية التي أدت إلى إكسابه هذه الصافات"[2]، ونستنتج من التعريفين؛ أن الثقافة هي فعل إنساني بمعايير توجيهية محددة، بالإضافة إلى أنها أسلوب في الحياة الإنسانية، حيث يكتسب الفرد الصفات الثقافية عن طريق التربية والتعليم.

بينما يشير مفهوم الثقافة في حقل الانثربولوجيا إلى مجموعة" الرموز التي تعكس الحياة الجماعية انعكاسا مباشرا، لذا يكون كل عضو من أعضاء المجتمع حامل لثقافة رغم وجود أفراد مخصصين الشاعر والقصاص والطبيب والساحر، تسمى الثقافة في هذه الحالة العضوية لأن بنيتها مطابقة

[1]- جيل فريول: **معجم مصطلحات علم الاجتماع**، ترجمة: أنسام محمد اسعد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2011، ص66.

[2]- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص378.

لبنية المجتمع"[3]، يوسع التناول الانثربولوجي من مفهوم الثقافة، ليجعل منه خاصية ثابة في كل المجتمعات الإنسانية، فحيثما وجد الإنسان وجدت الثقافة، باعتبارها فعل يغير به الإنسان من شروط وجوده الطبيعية. ونجد من التعاريف الشاملة لمفهوم الثقافة تعريف غي روشيه، بقوله: "هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، وهي طرق صيغت تقريبا في قواعد واضحة، والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص –يستخدم بصورة موضوعية ورمزية في أن معا..."[4].

ولا نريد في هذا المقال، أن نستعرض كل أبعاد مفهوم الثقافة، لكننا نقتصر على هذا الحد، لنشير في الأخير إلى أن الثقافة منتج إنساني، حيث تتجسد الثقافة في: "الأفكار والقيم والمعتقدات في الرموز، وفي نتاج من صنع الإنسان، وقد تكون هذه الرموز تصورية، أو قد تكون جزءا من لغة مكتوبة. أما نتاج صنع الإنسان فهو شيء مادي يحمل أفكار تلك المجموعة وقيمها ومعتقداتها"[5]، ويدفعنا هذا المفهوم إلى طرح السؤال عن من ينتج الثقافة؟ هل بالضرورة كل أفراد المجتمع الإنساني؟ أم أن إنتاج الرموز والأفكار الثقافية يضطلع به أفراد لهم خصوصيات عقلية وذهنية عالية؟ ويسهمون من خلال أفكارهم في تغيير الأوضاع الثقافية والحضارية لمجتمعاتهم.

---

[3]– عبد الله العروي: **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط4، 1977، ص172.

[4] – غي روشيه: **مقدمة إلى علم الاجتماع العام**، ترجمة: مصطفى دندشلي، ج2، مكتبة الفقيه، بيروت1، ط2، 2002، ض198.

[5]– ديفيد انغليز–جون هيوسون: مد**خل إلى سوسيولوجيا الثقافة**، ترجمة: لما نصير، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسات، قطر، ط1، 2013، ص18.

- 2- مفهوم المثقف.

يثير مفهوم المثقف العديد من الإشكالات المرتبطة بتحديده معرفيا ومنهجيا، فتتكاثر المفاهيم والشبكة العلائقية التي ينتمي إليها، مما يوقع الباحث في اللبس المنهجي عند تناوله. ويقضي مدار اشتغالنا أن نحدد مفهوم المثقف بصفة عامة، والمثقف العربي بصفة خاصة. تطلعنا المعاجم العلمية والفلسفية؛ أن مفهوم المثقف تم تداوله لأول مرة في القرن التاسع عشر، حيث" يعود تاريخ المثقف، وهو المصطلح الذي يدل على فئة من الناس تعمد منزلتها الاجتماعية على دعواها بالخبرة الاجتماعية(intellectuelle expertise) ،ولكنهم ليسوا مجرد كتاب أو فلاسفة أو فنانين، إلى بواكير القرن التاسع عشر"[6]، وتطور استخدام هذا المصطلح في العلوم الاجتماعية، ليشير إلى فئة اجتماعية تمتلك جملة من المعارف المتخصصة، تمكنها من إدارة الشأن العام في المجتمعات المعاصر.

ومن هذا المنطلق، اعتبر انطونيو غرامشي أن لكل طبقة اجتماعية مثقفيها، بل وقسم المثقفين إلى شقين، أولا: المثقفون التقليديون؛ " مثل المعلمون، ورجال الدين والإداريون، ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل إلى جيل، وثانيا؛ "المثقفون العضويون" الذين اعتبرهم مرتبطين على نحو مباشر، بطبقات أو بمؤسسات تجارية ستخدم المثقفين لتنظيم المصالح واكتساب المزيد من السيطرة"[7]، إذن، من وجهة نظر غرامشي السؤال عن

---

[6]- طونب بينيت: **مفاتيح اصطلاحية جديدة، مصطلحات الثقافة والمجتمع**، ترجمة: سعيد الغانمي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة)، ط01، 2010، ص 586.

[7]- أحمد مفلح مفلح: **في سوسيولوجيا المثقفين العرب**، (دراسة وصفية من خلال تحليل مضمون مجلة المستقبل العرب)، منتدى المعارف، بيروت، ط 01، 2013، ص57.

المثقف هو سؤال بالضرورة عن وظيفته الاجتماعية التي يؤديها، لخدمة الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

تم تجاوز هذا المفهوم في الفكر الغربي إلى مفهوم المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه، ولا تتوقف وظيفته عند حد إنتاج الأفكار والمعارف والمشاريع، بل اعتبر المثقف الغربي بمثابة الضمير الحي الذي يتكلم نيابة عن المجتمع، كما يقول ادوارد سعيد: "ذلك التعريف الشهير مع جوليان بدا للمثقفين بأنهم عصبة صغيرة من الملوك–الفلاسفة، الذين يتحلون بالموهبة الاستثنائية وبالحس الأخلاقي الفذ ويكونون ضمير البشرية"[8].

وانخرط المثقفون الغربيون في النضال من أجل قضايا رأوها عادلة من وجهة نظرهم، ويحضر جون بول سارتر كنموذج تمثيلي لهم. اكتسب المثقفون مكانة مرموقة، بسبب التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المجتمعات الحديثة، وانخراطهم الواعي والفاعل في مجالات الحياة الإنسانية المعددة، معتمدين على النقد كآلية معرفية يصححون من خلالها الأخطاء التي يرتكبها السياسيون، "فخرجنا مع سارتر – وخاصة بعد انتفاضة ماي 1968 في فرنسا، من مفهوم الطبقة والثورة الاشتراكية إلى مفهوم الإنسان والتحرر الاجتماعي، وكل الذين انطلقوا من هذا المفهوم العام الجيد للالتزام، وطوروه فيما بعد، انصرفوا إلى النضال من أجل حركات التحرر الوطني في وجه الاستعمار، وضد العنصرية..."[9].

---

[8]– ادوارد سعيد: **صورة المثقف**، ترجمة: غسان غصن، مراجعة: منى أنيس، دار النهار، بيروت، 1996، ص22.

[9]– عبد الإله بلقزيز: **نهاية الداعية الممكن والممتنع في ادوار المثقفين**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط01، 2010، ص13.

وفي مطلع التسعينيات مع انهيار الاتحاد السوفياتي وميلاد نظام دولي جديد، وتراجع الأفكار والمشاريع الطوباوية التي ظل المثقفون يبشرون بها، عاد الزخم لمفهوم المثقف، وعاد التساؤل هذه المرة ليس عن وظيفته بل عن مشاريعه الفكرية والمعرفية، فبعد أن ظل المثقف لعقود يمارس النقد على غيره، أصبحت السهام النقدية توجه إليه، وخاصة فكرته عن الالتزام السياسي والأخلاقي، فيرى ميشال فوكو أنه حان الوقت لنتحدث عن المثقف الخصوصي أي الذي لديه معارف متخصصة، وأطلق عليه اسم الخبير، بدل الحديث عن المثقف الكوني كما تخيله سارتر، " فلم يعد منذ مدة، مطالبا بلعب هذا الدور، فقد تبلور دور جديد للعلاقة بين النظرية والممارسة، حيث تعود المثقفون على الاشتغال، لا على ما هو كوني ونموذجي وحقيقي بالنسبة للجميع، بل داخل قطاعات محددة، وفي نقط معينة"[10].

أما في عالمنا العربي، فتمت استعارة الوظيفة الاجتماعية والنضالية للمثقف من الحقل المعرفي الغربي، ويحضر بشكل مكثف مفهوم غرامشي عن المثقف، وفي ما بعد مفهوم جون بول سارتر عن وظيفة المثقف. طغى هذان المفهومان على معظم الكتابات المحددة لطبيعة المثقف العربي، " فأخذ المثقف العربي المعاصر فكرة الالتزام عن مثقفي أوربا أو الغرب، وفي سياق انتظامه في مقالاتهم وتياراتهم الأيديولوجية"[11]، وتم تغليب النزعة النضالية كعنصر أساسي في تحديد ماهية المثقف، بسب السياق التاريخي الذي تولد فيه مفهوم المثقف العربي، والذي ارتبط بالتحرر الوطني من كل آليات الهيمنة الاستعمارية وكل أشكال الطغيان الامبريالي.

---

[10]- ميشال فوكو: **الوظيفة السياسية للمثقف**، ترجمة: عزالدين خطابي، مجلة رؤى، فلسطين، العدد26، 2010.

[11]- عبد الإله بلقزيز: **مرجع سابق**، ص22.

أما ما نقصده في هذه المقالة؛ تحديد مفهوم المثقف كما صاغه المثقفون العرب في خطاباتهم، إن بصيغ مباشرة[*] أو بصيغ متوارية يمكن للقارئ أن يستنبطها. مع التذكير بالارتباط اللزومي بين مفهوم المثقف العربي بمفهوم الايديولوجيا، فالجابري يعرفه، قائلا:" إن المثقف إذن هو في جوهره ناقد اجتماعي، إنه الشخص الذي همه أن يحدد ويحلل ويعمل، من خلال ذلك، على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل نظام أكثر إنسانية، وأكثر عقلانية، إنه بذلك يصبح ضمير المجتمع"[12].

أما برهان غليون، فيرى أن المثقف؛ "ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع، حيث تتميز عن غيرها بتفكيرها العالي والناقد، وتدخل في عملية الصراع الاجتماعي والسياسي، وفي النهاية يكون تأثيرها واضحا، أو من خلال مشاركات قوية لصنع السياسية والقرار السياسي، أو من خلال أعمال فكرية كبيرة تؤثر في الناس والمجتمع فكريا وثقافية ومعنويا"[13]، ومن التعريفين يظهر جليا تقديم النضال و الالتزام السياسي على الخطاب الفكري والمعرفي، حيث يتم حصر دور المثقف في وظيفة النقد السياسي والثقافي للأوضاع الاجتماعية العربية، وهي تعبير صارخ عن هيمنة الأيديولوجي على المعرفي في خطاب المثقفين العرب.

---

[*]– انظر: الطاهر لبيب وآخرون: **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1992،01، وغيرها من الدراسات حول المثقف العربي.

[12]– محمد عابد الجابري: **المثقفون العرب، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ط2010،02، ص25.

[13]برهان غليون: **تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القيادية**، في أنيس الصايغ، المثقف العربي: همومه وعطاؤه، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ص86 .

نكتفي بهذين التعريفين لمفهوم المثقف العربي، لأنه من وجهة نظرنا يعبران عما يخالج بقية المفكرين العرب، حيث اعتبروا المثقف إنسانا ذا معارف علمية وفلسفية واجتماعية، يستخدم النقد كأداة رئيسية ليثبت حضوره الاجتماعي في المجتمع، ملتزما بقضايا وهموم أمته، يناضل من أجل قيم الحرية والعدالة والعقلانية...، وفي المحصلة اعتبروه مبشرا ثقافيا في ثوب مصلح اجتماعي.

غير أن هذه الصورة المثالية للمثقف والبعيدة عن الواقع، ومع التطورات السياسية والاقتصادية الحاصلة في العالم العربي في العقدين الأخيرين، دفعت بباحثين آخرين إلى إعادة التفكير في دور ووظيفة المثقف العربي في مجتمعه، فبدلا من الممارسات النقدية للأوضاع القائمة، التي لم يعد بمستطاعهم مداراتها و الإمساك بها، توجهوا إلى نقد المثقف ومشاريعه الفكرية والايديولوجية، التي برأيهم هي من حدت من فعاليته الاجتماعية والنضالية داخل المجمعات العربية المعاصرة، ويأتي على رأسهم على حرب الذي فتح النار على المثقفين العرب، منتقدا ذواتهم وأفكارهم وأيديولوجياتهم،. منطلقا من فكرة مفادها أن؛ المثقفين في العالم العربي يعانون من أزمة عميقة، عبر عنها، بقوله:" المقصود بالأزمة فقدان المصداقية الفكرية والفاعلية النضالية، بعد تصدع النظريات الشاملة في قراءة العالم، وبعد انهيار المشاريع الأيديولوجية والسياسية في ضوء التحولات المتسارعة على أرض الواقع"[14] .

إذن، انتهى حسب علي حرب عهد المثقف الرسولي، والمثقف حارس القيم والمثقف المتكلم بضمير المجتمع، ومن هذا المدخل التحليلي وتمشيا مع

[14] علي حرب: **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط03، 2004، ص10.

طبيعة هذه المقالة، فإن زاوية النظر التي ننطلق منها في تحديد المثقف العربي؛ هي زاوية نقدية محضة، فبدلا من التوجه مباشرة إلى تحديد وظيفته الاجتماعية، محتما علينا أن نساءل ذاته ومشاريعه، وفضاءه الذي يشتغل فيه، ونسعى في هذه المقالة لاختبار الفرضيتين التاليتين:

1-إن فقدان المصداقية الفكرية للمثقف العربي ترتبط بطغيان المنظورات الأيديولوجية على خطابه المعرفي.

2-إن فقدان الفاعلية الاجتماعية للمثقف العربي ترتبط بطبيعة التبشير الأيديولوجي، الذي يحرمه سعة النظر إلى الواقع، إضافة إلى ظهور فاعلين جدد في الفضاء العمومي حدوا من دوره الثقافي والاجتماعي.

2- علاقة المثقف العربي بالسلطة السياسية

إن من أكثر المسائل إيثارا للجدل في العالم العربي؛ هي علاقة الثقافي بالسياسي، وتحديدا علاقة المثقفين العرب بالسلطات السياسية،" فلقد كابد المثقفون العرب مرارا وعانوا طويلا من " رهاب" السلطة التي لم تعترف بهم غالبا، ولم تعترف بهم أو تحفزهم أو تقدرهم إلى موالين خانعين وخاضعين فخملت فعاليتهم وضعفت اجتهاداتهم" [15]، غير أن هذه الفكرة تقدونا أيضا إلى أنماط عديدة للمثقفين؛ منهم المتمردون الذي أعلنوا عداءهم لها، ومنهم الانسحابيون الذين آثروا العزلة والهامشية كخيار بديل عن المواجهة، ومنهم الانتهازيون –المتلونون الدين استكانوا بل وتحولوا إلى أدوات في أيدي النظم السياسية، لتبرير مواقفها وخياراتها، وكل هذه الأنماط أثرت على الفعالية الاجتماعية للمثقف في مجتمع العربي المعاصر[16] .

[15]- عبد الله أبو الهيف: **المثقف والسلطة**، ص104.

[16]- انظر؛ أنماط المثقفين في: نور الدين زمام: **حول سوسيولوجيا المثقف الجزائري**، مجلة إضافات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، العدد الأول، 2008، ص127.

النمط الأول؛ نمط المثقف العربي المتمرد، تضعه مهمته النضالية وخياراته الأيديولوجية في صدام دائم مع السياسي، يمارس النقد كآلية مستمرة تجاه كل مشاريع السلطة، غير أنه يتجاهل السياقات التاريخية التي شكلت هذه السلطة، فيوقع ذاته في صدام دائم معها دون أن يتمكن من تعريتها على حقيقتها، ويتحول نقده إلى مجرد نقد سلبي لا يختلف عن نقد العوام لها،" النقد السلبي تجاه السلطة مع تجاهل السياق الثقافي والإرث التاريخي الذي نمت عليه واستمدت منه شرعيتها"[17].

يؤدي هذا النقد السطحي للسلطة السياسية في العالم العربي إلى تأزم علاقة المثقف بها، لأنه يتوهم أن المشكلة في طبيعة الأيديولوجيا التي تكسب منها النظم السياسية الشرعية، في حين، أن المشكلة ترتبط بالجذور التاريخية التي تشكلت في ظلها هذه السلطوية. ونستقرئ أحد النماذج التمثلية لهذا النوع من المثقفين، حيث يقول صاحبه أن: " معركة التحرر مزدوجة، من النظام الاستبدادي الذي تحول إلى استعمار واحتلال داخلي على أيدي بعض النخب الحاكمة للبلاد والمؤسسات الدولة والدولة بأكملها، وإلى فرض الوصاية على الشعب والمجتمع، والتحرر من الفساد المعمم والشامل، الذي دمر أسس المجتمع نفسه"[18]. ألا يضع هذا النوع من الخطاب الأيديولوجي المثقف في صدام مباشر مع السياسي، رغم أننا نزعم أن السياسي في العالم العربي هو من يفرض عليه هذه المعارك الوهمية حتى يستنفذ طاقاته الحيوية، ويحد من فاعليته الاجتماعية، وأخيرا، يتمكن من تمرير مشاريعه في المجتمع.

[17]- محمدشوقي الزين: **إزاحات فكرية، مقاربات في الحداثة والمثقف**، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط01، 2008، ص80

[18]برهان غليون: **ميلاد عالم عربي جديد**، مجلة الدراسات الفلسطينية، فلسطين، ربيع 2011، ص9.

ونصل إلى فكرة مفادها؛ أن النقد السياسوي الخالي من كل مضمون معرفي يتحول إلى تهريج سياسي، وكل خطاب معرفي يغلب عليه البعد النضالي يفقد سمة الكشف عن العتبات المظلمة، ويتحول إلى حروف جوفاء، فالمثقف الحقيقي هو من يكشف عن طريق الدرس المعرفي آليات الهيمنة واستمرارها في المجتمعات العربية، وهو الذي يسائل البنى الاجتماعية والثقافية التي تولد الوعي لدى الإنسان العربي، وعدته في هذا كله رأسماله المعرفي والمنهجي، " فيمارس المثقف سلطته الرمزية في مواجهة السلطة الواقعية(السياسية) المستعملة لألوان الإكراه والإخضاع على الأفراد بوصفهم فاعلين اجتماعين يحملون اكرهات وعلاقات هي جملة صراعات رؤى العالم"[19] .

النمط الثاني: نموذج المثقف التقني، إن من خاصيات النظم السياسية المعاصرة أنها أصبحت تستعين بالمثقفين في إدارة شؤون الدول، إلا أن هذه الاستعانة يرى البعض أنها من واجباته المعرفية وأحد أشكال فعاليته الاجتماعية، ويرى البعض الآخر، أنها تفقده حسه الأخلاقي وتقضي على المسافة التي يجب أن يرسمها المثقف بينه وبين السياسي، من هذا المنظور، يرى ادوارد سعيد:" أن المثقف ليس موظفا أو عاملا، يكرس جهوده كلها لتحقيق أهداف السياسات التي تضعها الحكومة أو الشركات الكبرى أو حتى النقابة التي تضم مهنيين بالأسلوب نفسه، من هذه الحالات نجد أن الإغراء بتعطيل الحاسة الأخلاقية...، والواقع أن الكثير من المثقفين يخضعون خاضعا تاما لهذه الإغراءات"[(3)]، في العالم العربي، إذا اختار البعض المواجهات الأيديولوجية فإن البعض من المثقفين من اختار التزلف إلى

[19]- محمد شوقي الزين: **مرجع سابق**، ص90.

3- ادوارد سعيد: **السلطة والمثقف**، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص148.

السلطة السياسية، مما افقدهم الكثير من المصداقية والفعالية الاجتماعية، وتحولوا إلى أدوات في أيدي السياسي يستخدمها في تزييف وعي الجماهير العربية.

في الأخير، وإنصافا لبعض المثقفين العرب الذين طرحوا مشاريع فكرية تتعاطي فعليا مع الأزمة الحضارية التي يحياها المجتمع العربي، غير أن أدوات تحقيقيها لم يأخذ بها السياسيون، يحضر مالك بن نبي كنموذج تمثيلي في المجتمع الجزائري.

أما الملاحظ اليوم، أن النظم السياسية العربية المعاصرة لم تعد في حاجة إلى المثقف في صناعة الرأي العام لمجتمعاتها أو توجيهيه، بسبب ظهور فاعلين جدد أصبحوا يسيطرون ويشغلون الفضاء العمومي، ويقدمون لها خدمات جليلة، ويأتي على رأسها الميديا (وسائل الإعلام) المحلية، التي تتفنن في رسم أسطورة الزعيم الملهم، الذي لا يملك المثقفون العرب جزءا ضئيلا من معارفه، وكذلك، الميديا العالمية التي تعمل على تنميط المجتمعات وفق الثقافة الأمريكية، لتزيد من معدلات استهلاك الأفراد لمنتجاتها. وفي كل الحالات، أصبح المثقفون العرب يجدون صعوبات جمة في التواصل مع جمهورهم، فتحد الميديا التي استعمرت الفضاء العمومي من فعالية المثقفين، " فالإعلام لا يحاصر الثقافة الأصلية والحية فحسب، بل يقولب الوعي وفق توجيهات السلطة التي تمتلك وسائل الإعلام، وثمة دراسات وأبحاث كثيرة خلال هذه العقود الثلاثة عن تزييف الوعي بتأثير الإعلام..."[20] .

إذن، لم يعد الفضاء العمومي – الحيز المشترك شاغرا كما في السابق، يمكن أن يستخدمه المثقف لتعبير عن مشاريعه الفكرية، بل أصبح

[20]– عبد الله أبو هيف: **مرجع سابق**، ص105.

هذا الفضاء تحت سطوة الميديا ووسائط الاتصال الحديثة(الانترنت)، وما تعمله من قولبة للوعي الجمعي للأفراد، وصناعة النماذج المثالية الإنسانية الفارغة من كل مضمون ومحتوى، والمندمجة في روح العصر القائمة على الاستهلاك المفرط، فأصبح الرياضيون(كرة القدم تحديدا) وفنانات الإغراء في العالم العربي أكثر حضورا في هذا الفضاء. وغابت العقول والأفكار عنه، لذلك، أحد العوامل المهمة التي حدت من فعالية الاجتماعية للمثقف هي احتكار الفضاء العمومي من طرف السلطة عن طريق أدواتها الإعلامية، التي أصحبت تشغل الرأي العام بمباريات كرة القدم وتصفيات نجوم الغناء(برامج ستار أكاديمي).

3- الخطاب الأيديولوجي للمثقف العربي

منذ أن نشر ماركس بالاشتراك مع صديقه انجلز كتابهما الشهير"نقد الايديولوجيا الألمانية"، أين اعتبرا الأيديولوجيا من أدوات تزيف الوعي، وعرفوها على أنها: " عبارة عن نظام من الأفكار الباطلة التي يمكن اعتبراها ثانوية وغير متصلة بحقيقة ثابتة، وأنها مجرد محاولة لتبرير السيطرة الطبقية"[21]، حيث تعمل الأيديولوجيا على تزييف الواقع من خلال تزييف وعي الأفراد به. أصبح هذا المفهوم له حضور في مختلف الحقول المعرفة، من الفلسفة إلى العلوم الإنسانية، وتبلورت العديد من المواقف المعرفية تجاهه، من اعتبار الايديولوجيا محفزة على البحث العلمي، إلى اعتبارها من الظواهر السلبية التي تحول دون تحقيق الموضوعية في فهم الظواهر والوقائع.

[21]انظر: كارل ماركس، فرديرك انجلز: **الايديولوجيا الألمانية**، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق، 1968.

وبدلا من المنظور السلبي الذي أضفاه ماركس على الايديولوجيا، تم تحويلها إلى منظور إيجابي مع المفكر المجري جورج لوكاتش في كتابة" التاريخ و الوعي الطبقي"، فاعتبر أن لكل طبقة اجتماعية وعيها وأيديولوجيتها الخاصة. ولاحقا تحولت فلسفة ماركس إلى أيديولوجيا بالنسبة للمنتسبين إليها، أين اعتبروها أداة معرفية تعمل على تحرير الإنسان من الوعي الزائف، وأن مهمة المثقفين تتمثل في تحرير وعي الناس من براثن وجودهم الاجتماعي.

ومن هذا المنطلق، تستخدم الأيديولوجيا بحسب العروي وفق مستويين، " فإن مفهوم الايديولوجيا دائما مزدوج فهو في نفس الوقت وصفي ونقدي، يستلزم دائما مستويين: المستوى الذي تقف عنده الادلوجة حيث تظن إنها الحقيقة مطابقة للواقع، ...، والمستوى الثاني هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الادلوجة انه ادلوجة لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح"[22].

اعتبر معظم المثقفين العرب الايديولوجيا تحيز حتمي بالنسبة للذات العارفة المنخرطة في قضايا المجتمع، ورأوا فيها الأداة المعرفية النقدية التي يمكن أن يوظفوها لتبليغ مشاريعهم الفكرية والسياسية، ويفحموا بها خصومهم، وفي ظل مغيرات دولية متمثلة في الحرب الباردة وميلاد حركة عدم الانحياز، ومعطيات محلية ممثلة في المشاريع العربية القومية كالمشروع البومديني والناصري في ستينيات والسبعينيات القرن الماضي، اتجهت معظم خطاباتهم إلى التبشير الأيديولوجي، ويأتي على رأس تلك الأيديولوجيات الماركسية المطعمة بالخصوصية القومية العربية، فتحول

[22]– عبد الله العروي: **مفهوم الايديولوجيا**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط05، 1993، ص11.

المثقف إلى مناضل ثوري بامتياز، فيقول بلقزيز معلقا:" تحول المثقف إلى داعية مبشر لا يكاد يختلف عن المناضل الحزبي إلا في كونه يملك بضاعة ثقافية أوفر كثرة، و الأنكى أنه ما قرأ من انحطاط نصابه من المثقف إلى داعية السقوط في مكانة وانحدار في قيمة دوره"[23] .

وظل يتوهم معظم المثقفين العرب أن الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمعات العربية لا يمكن إدراكه واستيعابه إلا من خلال جملة من المقولات الأيديولوجية؛ مقولة الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية وغيرها من المفاهيم، التي تمت أسطرتها وأدلجتها. لكن السؤال الذي يطرح اليوم: هل الأيديولوجيات التي تبناها المثقفون العرب نابعة من واقعهم الاجتماعي والثقافي والسياسي، أم أنها مستوردة من الحقول المعرفية الغربية؟ والإجابة واضحة جلية في؛ أنها امتداد لعملية الاستعارة التي ظل يمارسها العقل العربي منذ لحظة اصطدامه بالحداثة الغربية، حيث يستورد المنتجات المادية كما يستورد المنتجات الفكرية، لذلك، الأيديولوجيات التي سادت في العالم العربي ولا تزال في أغلبها ذات منشأ فلسفي غربي، وليست وليدة البيئية الاجتماعية–الثقافية العربية، " فالمثقفون العرب لا يفعلون إزاء هذه الأسئلة، في أفضل الأحوال، سوى إعادة إنتاج المقولات الغربية ليعيدون تعريبها: كلا أو جزءا منها، أي معناه أنهم يجهرون بالعجز عن ممارسة أي نوع من أنواع المبادرة والإبداع خارج سياق التكرار والترداد"[24].

والسؤال الثاني المطروح؛ هل المثقفون العرب حاملون لمشروع فكري ثقافي، أم حاملون لمشاريع أيديولوجية؟ فكما نعلم أن الحدود الفاصلة بين ما هو أيديولوجي وما هو معرفي تكاد تكون رفيعة جدا، فهناك من

[23]– عبد الاله بلقزيز: **مرجع سابق**، ص22.

[24]–1– عبد الإله بلقزيز: **مرجع سابق**، ص73.

الفلاسفة من يعتبر أن كل خطاب معرفي بالضرورة هو أيديولوجي، أي يعبر عن مصالح لفئة اجتماعية ما، في حين، تذهب الدراسات النقدية المعاصرة للمعرفة خاصة المتعلقة منها بابستيمولوجيا المعرفة، إلى أن هناك فروق جوهرية بين الأيديولوجي والمعرفي، فالايدولوجيا لا تسعى إلى الحقيقة كهدف بالنسبة للمعرفة، بل تعتبر خطابها هو الحقيقة ذاته، لذلك هي منزهة من النقد والشك، ولا تترك مجالا للباحثين للاشتغال عليها، بل تصنف من يقومون بذلك في خانة الإيديولوجيين الذين ينافسونها، لذا معظم خطابات المثقفين العرب يهيمن عليها البعد الأيديولوجي، أين يعتبرون خطاباتهم تحوز اليقين والحقيقة المطلقة،" فخطاب المثقفين العرب خطاب وثوقي مطلق، الأفكار فيه منزهة عن الشك والنقد، متشبعة بتوهم" الامتلاك" المعرفي للحقيقة"[25] .

ومن زاوية أخرى، سهولة توظيف الايديولوجيا كنسق فكري ومفاهيمي جاهز ومعطى، يعبر عن العجز الفكري للمثقفين العرب في إنتاج أدوات التفكير ومناهج التغيير، فالخطاب الأيديولوجي لا يسعى لتحقق من بداهاته وفرضياته، بل يسعى إلى إسقاط مفاهيمه على الواقع. ومن هنا، لا يكون التراكم العلمي كخاصية للخطاب الأيديولوجي في مقاربة الواقع، بل في كل مرحلة يمكن أن يتكئ المثقف العربي على خطاب أيديولوجي لفهمه، فحامله لا يمتلك روح النقد ،فلا يملك من خيار آخر غير تغيير أيديولوجيته، من ماركسي مثلا إلى لبيبرالي أو العكس، "إن معظم المثقفين العرب، لا يزالون غارقين في سباتهم الأيديولوجي، لا يحسنون سوى نقض الوقائع لكي

[25]- عبد الإله بلقزيز: **مرجع سابق**، ص76.

تصبح مقولاتهم أو نظرياتهم، إنهم يرون العلة في الواقع لا في أفكارهم أو في أنماط الفهم أو في طريقة التعامل مع الحقائق"[26].

إذن المسألة تتعلق بعلاقة النظر بالعمل، وعلاقة الفكر بالممارسة، فالمثقفون العرب الذين تم توجيه النقد لأيديولوجيتهم التي تم تجسيدها على أرض الواقع (الاشتراكية نموذجا)، فتأتي إجاباتهم سريعا ومؤكدة على ضرورة التفرقة بين النظري والتطبيقي، وبأن النظم السياسية العربية لم تطبق الايديولوجيا المتبناة بحذافرها وإنما حرفتها، لذلك، لم تؤتي أكلها الحضاري، وفي مرات عديدة، يتم اتهام المجتمع بأنه رجعي، لم يستوعب الايديولوجيا، وأن مشاريعهم لم تفشل بل هناك من أجهضها ،" وعلى العكس ما يعتقد أصحاب المشاريع الأيديولوجية، إذا اعتادوا إزاء الفشل تصوراتهم القومية والاشتراكية أو الإسلامية، على الفصل بين العرب والعروبة، أو بين الإسلام والمسلمين، أو بين الاشتراكية والاشتراكيين..."[27] .

بسبب طغيان المنظورات الأيديولوجية على خطابتهم، فقد المثقفون العرب الكثير من المصداقية داخل المجتمعات العربية. يقتضي الطرح العقلاني ضرورة أن يعيد المثقفون العرب النظر في ذواتهم وفي مشاريعهم ومناهجهم، عليهم أولا أن؛ يتحرروا من الايديولوجيا ومفاعليها، وأن يراهنوا على حد تعبير علي حرب على الخطاب المعرفي، الذي ينطلق من التساؤل حول كيفية فهم الحدث والواقع، عن طريق إنتاج المفهومات التي تمكننا من استيعابه ونقده، والكف عن خطاب الداعية – المبشير والحارس الأمين

[26]- علي حرب: **مرجع سابق**، ص67.

[27]- علي حرب: **مرجع سابق**، ص67.

للأفكار،" الأفكار ليست شعارات ينبغي الدفاع عنها، أو مقولة صحيحة ينبغي تطبيقها، بقدر ما هي أدوات لفهم الحدث وتشخيص الواقع"[28] .

4- وعي المثقف العربي بقضايا مجتمعه

بعد تحليلينا النقدي لطبيعة الخطاب المعرفي للمثقف العربي، ورأينا كيف تطغى الايديولوجيا عليه، من المؤكد أن هذا النوع من الخطاب يؤثر سلبا على علاقته بقضايا مجتمعه وهمومه، فمن جهة، وعي المثقف بالواقع الاجتماعي للمجتمع العربي، نرى أن الايديولوجيا كخطاب مغلق يحرمه من سعة النظر إليه، حيث يتمثل هذا الواقع من خلال جملة من المقولات الجاهزة في تصوره لا يعتريها الشك والتبديل، فتأتي مقارباته بعيدة عن جوهر المشكلات التي يتخبط فيها الإنسان العربي، لأن من الوظائف السلبية للأيديولوجيا أنها تعمل على تزييف الواقع وتحريفه، " إن الايدولوجيا عامل استيلاب لأنها تفرض على الإنسان رؤية للواقع تجعل الإنسان غريبا عن ممارسته الاجتماعية الحقيقية"[29]، وبالتالي، يفقد خطابه المتولد الكثير من المصداقية لدى شرائح اجتماعية واسعة في المجتمع العربي، لأنه خطاب ركب على مفاهيم وتصورات لا تعكس الواقع كما هو، بل تعكس واقعا غير عربي، مما يفقد المثقف الصلة بمجتمعه، ويضعه في حالة هامشية لا يلتفت إليه أحد، و الإشكالية أن يتوهم المثقف أن الإنسان العربي لم يرتقي بوعيه بعد لفهم خطابه، مما يزيد في عزلة المثقفين عن هموم مجتمعاهم.

ومن جهة أخرى، إن علاقة المثقف العربي بمجتمعه تأخذ عدة أنماط حسب خياراته وقناعاته الأيديولوجية، فتمشيا و انسجاما مع مهمة الداعية –

---

[28]- علي حرب: **مرجع سابق**، ص11.

[29]- محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي: **الحقيقة**، سلسلة دفاتر فلسفية، دار توبقال، المغرب، ط02،2005، ص92.

الرسولي التي تغلب على مخيلة المثقف العربي. يعتبر نفسه بمثابة الوصي على المجتمع العربي، لأنه الأعلم والأقدر على فهمه واقعه، بسبب امتلاكه للرأسمال المعرفي والرمزي، فيرى نفسه مالكا للحقيقة واليقين، ويقع على عاتقه أن يوصل ذلك اليقين لمجتمعه. وفي المقابل، إن التحليل السوسيولوجي العميق لفكرة الوصي ترتبط بطبيعة البنية الاجتماعية المجتمع العربي، الذي تسوده الذهنية البطريركية على حد تعبير هشام شرابي، والتي تقوم على أساس الأبوة المطلقة في الأسرة، والتي تمتد بدورها إلى فضاءات اجتماعية أخرى، كمنظومات التعليم القائمة على التعليم التلقيني للحقائق، وصولا إلى النظم السياسية التي تعتبر المجتمع قاصرا، وهي التي تتبناه وترعاه، وبالتالي، المثقف العربي لا يمثل في جانب منه إلا استمرار لهذا المفهوم باقتدار. وبسبب التحولات الاجتماعية المعاصرة تصدعت نسبيا الذهنية البطريركية، ولم يعد الإنسان العربي يقبل بالوصاية عليه، ولو كانت من طرف المثقفين(رجال الدين)، مما افقد الخطاب الثقافي الكثير من الفعالية الاجتماعية، كما يوضح على حرب ذلك، قائلا: " يقدم المثقف العربي نفسه للجمهور بوصفه الكائن الاجتماعي الحامل لرأسمال متميز هو المعرفة، يستثمر المثقف إياه حاجة المجتمع إلى هذا الرأسمال لتنمية إدراكه ووعيه بالعالم وحقائقه، فيعرض على الجمهور صفقة ضمنية تقضي بان يقوم هو بممارسة عملية التفكير والمعرفية" بنيابة" عنه"[30] .

وهناك مفارقة تحكم طبيعة خطاب المثقف العربي، فحين يدعو إلى التنوير على الطريقة الغربية، يزداد الخطاب الديني السلفي حظورا في المجتمع العربي، وحين يدعو إلى الأخذ بالديمقراطية تزداد معدلات الاستبداد

[30]- عبد الإله بلقزيز: **مرجع سابق**،ص93

في الواقع السياسي، وإذا دعا إلى مزيد من العقلانية تزداد معدلات التجهيل، وكأن الواقع الاجتماعي يعكسه على الدوام، مما يؤكد اغتراب خطابه وفكره عن الواقع، فيقول علي حرب أن: "المثقف العربي بات أعجز من أن يقوم بتنوير الناس، إذ هو أصبح يحتاج إلى التنوير، بنقد دوره وتفكيك خطابه عن العقل والاستنارة"[31] .

إن الوعي بقضايا الواقعة وتفاصيله والآليات التي تحكمه وتوليد المفهومات انطلاقا منه لا إسقاطا عليه، هو أحد المداخل الرئيسية لإعادة وصل المثقف بمجتمعه، ولكن نتيجة للأيديولوجيا التي ينافح عنها المثقف العربي، يجد أن معظم خطاباته التي يضفي عليها صبغة العلمية، لا أساس واقعي يسندها، كما في خطاب المشتغلين في العلوم الإنسانية، وفي الكثير من الأحيان، يفاجئه الواقع كفرد في المجتمع، لا كما يدعي صاحب علم ومعرفة دراية، ولعل الربيع العربي وأحداثه خير دليل على ذلك. يحضر في قراءته للتغيرات التي تعتري الواقع في الغالب متأخرا، وفي مرات عندما تكشف الأحداث تهافت أدواته الفكرية المغلفة بالأيديولوجيا، يلعن الأحداث ويلعن المجتمع، ويرميه بشتى أشكال التخلف والرجعية والانحطاط، بل ويتحالف مع الشيطان ليثبت صحة مقولاته[*]، كما يقول أنطوان سيف:" المثقف اكتفى بأن يقرأ أفكاره ليلبسها على الوقائع، وقلما جاءت متناسبة مع قياس الأحداث، لم

---

[31]- علي حرب: **مرجع سابق**، ص13.

[*]– الحالة السورية: تحالف بعض المثقفين السوريين مع إسرائيل من أجل إسقاط النظام السياسي السوري، فأي مبرر يقدموه للجماهير العربية.

– رفض بعض المثقفين المصريين لنتائج الديمقراطية في مصر لما فاز بها الإخوان المسلمون، وساندوا فيما بعد الانقلاب العسكري بعد أن صدعوا رؤوسنا لعقود بالدعوة إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان(حسن نافعة كمثال).

ينتج المثقفون لغة جديدة، ورؤية جديدة، ولم يفكروا في هذا المنعطف(الربيع العربي)، في أن عليهم أن يساءلوا أنفسهم وينتقدوا أفكارهم وثوابتهم"[32] .

إن شقاء وعي المثقف العربي يدفعه إلى أن يساءل ذاته العارفة بدلا من أن يلعن الآخرين بعدم فهم أفكاره، لذلك من الضروري أن يعيد نقد مشاريعه الفكرية، وأن يحدد مهامه وأدواته التي يجب أن تتساوق مع المعطيات والتغيرات التي تعرفها الإنسانية عامة، والإنسانية العربية بصفة خاصة، و أول خطوة لإعادة صلته بالمجتمع تتمثل في فهمه للواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي، عن طريق إنتاج المقولات والمفاهيم المستقلة لإدراكه، والكف عن التنظير الأيديولوجي، وعن ممارسة دور الحارس الأمين لقيمه أو اعتبار نفسه الناطق الرسمي باسم المجتمع، فلا يمكن لمن وعيه مظللا أن ينتج خطابا يدعي فيه تحرير وعي الناس، إن الرهان سيكون على نوعية الخطاب المعرفي الذي ينتجه المثقفون في مختلف التخصصات العلمية، إننا نتفق مع ميشال فوكو عندما دعا إلى ضرورة التفكير في المثقف الخصوصي وليس المثقف الكوني.

الخاتمة :

في الختام، وبعيدا عن خطاب الوعظ والإرشاد فإننا عن طريق المنهج التحليلي النقدي الذي استخدمناه في تفكيك مقولة المثقف العربي، نصل إلى جملة من النتائج، والتي نرى من زاوية نظرنا أنها تحتاج إلى دراسة أكاديمية في العلوم الإنسانية ليتم تطويرها وتعميقها، نوجزها في جملة النقاط التالية:

[32]- أنطوان سيف: **المثقفون العرب و الربيع العربي**، حلقة نقاشية، مجلة المستقبل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ص125.

1- يرتبط فقدان المصداقية الفكرية للمثقف العربي بطغيان الأيديولوجيا على معظم مفاصل خطابه، لذلك أول خطوة يفعلها تحرير خطابه من الايديولوجيا المفرطة، التي من سماتها دعوى تملك الحقيقة، أين يتم فيها التسامي بمجموعة من افتراضات تتعلق بمختلف أوجه الحياة الإنسانية إلى درجة المسلمات والبديهيات، التي لا ناقش فيها وغير القابلة للنقد. تغلف الأيديولوجيا وعي المثقف العربي مما يصعب عليه فهم الواقع المتغير باستمرار كخاصية ثابة من خصائص الظواهر الإنسانية، إضافة إلى أن هذا النوع من الخطاب الوثوقي والمفرط في اليقين لا يترك للمتلقي مساحات هامشية للنقد ينفذ من خلالها إلى خطاب المثقف، فيدفعه ذلك إلى النفور منه جملة وتفصيلا.

2- تقتضي التحولات الفكرية المعاصرة أن يتخلي المثقف العربي عن الصور المثالية الذي ظل يرسمها لذاته، كذات تتسامى على بقية ذوات مجتمعه، بدعوى حيازته رأسمال معرفي، يمكنه من فهم مكنونات الواقع، و باعتباره الحارس الأمين لقيم المجتمع، فالمهمة التي يجب أن يضطلع بها حتى يعيد الحيوية لخطابه، تتمثل في كيفية إقناع الإنسان العربي كذات اجتماعية تتجذر في عديد الجماعات على تجاوز أفقه الآني واللحظي إلى الأفق الرحب، فينخرط معه في التفكير في القضايا التي يراها من وجهة نظره تحتاج إلى بلورة جديدة، وكأنه يجره إلى ساحات الوغى المعرفية، فتتسرب إلى ذات الإنسان العربي روح التساؤل والنقد عن وضعه الوجودي والثقافي والسياسي.يكف المثقف العربي عن النظر إليه على أنه قاصر وهو كافله، إنما مسترشدا بمقولة امانوال كانط أجرئ على التفكير بنفسك ولا تترك الآخرين يفكرون بدلا عنك، فالحرية الفكرية طريق إلى الحرية الوجودية.

3- إن حاجة الإنسان العربي إلى خطاب ثقافي ينبع من ذوات تحمل الصدق تجاه أفكارها، وخطاب معرفي يساعده على فهم الواقع لا من يصفه له، فليعيد المثقف العربي الفاعلية الاجتماعية لذاته في المجتمع المعاصر، عليه أن يولد مفهومات تكون بمثابة نماذج تفسيرية للواقع (السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي)، و أن يتخلى عن الخطاب الأيديولوجي السياسوي الذي يضعه في حالة تهيج دائم، مما يفقده الكثير من جهده في تطوير فكره وخطابه، وليس من النقص أن ينتقد كل مفهوم وكل آلية وظفها واكتشف تهافتها، بعد أن يحاول إشراك كل الفاعلين في مشروعه الفكري والنقدي.

4- إن المثقفين الحقيقيين هم الذين يتجاوزن الأفق المعرفي اللحظي ويرسمون العوالم المستقبلية التي يحلم بها الإنسان العربي، أما المثقفون العاجزون هم الذين يتمنون وقوع الحوادث لتؤكد صدق طروحاتهم الأيديولوجية، فيتسرب منهم الواقع ويتجاوزهم ويتركهم يدرون في ساحات الفراغ، و المثقفون العرب اليوم مطالبون بضرورة الانفتاح على الفضاء العمومي، وأن يقتحموه كما اقتحمه فاعلون آخرون، وأن لا يفروا منه بدعوى الحفاظ على نخبويتهم.

قائمة المراجع :

1- أحمد مفلح مفلح: **في سوسيولوجيا المثقفين العرب**، (دراسة وصفية من خلال تحليل مضمون مجلة المستقبل العرب)، منتدى المعارف، بيروت، ط 01، 2013.

2- ادوارد سعيد: **صورة المثقف**، ترجمة: غسان غصن، مراجعة: منى أنيس، دار النهار، بيروت، 1996.

3- ادوارد سعيد: **السلطة والمثقف**، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

4- برهان غليون: **تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القيادية**، في أنيس الصايغ، المثقف العربي: همومه وعطاؤه، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

5- ديفيد انغليز-جون هيوسون، **مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة**، ترجمة: لما نصير، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسات، قطر، ط1، 2013.

6- طونب بينيت: **مفاتيح اصطلاحية جديدة، مصطلحات الثقافة والمجتمع**، ترجمة: سعيد الغانمي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة)، ط01، 2010.

7- عبد الله العروي: **مفهوم الايديولوجيا**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط05، 1993.

8- عبد الله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط4، .

9- علي حرب: **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط03، 2004.

10- كارل ماركس، فرديرك انجلز: **الايديولوجيا الألمانية**، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق، 1968.

11- محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي: **الحقيقة**، سلسلة دفاتر فلسفية، دار توبقال، المغرب، ط02،2005.

12- محمد عابد الجابري: **المثقفون العرب، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ط02،2010.

13- محمدشوقي الزين: **إزاحات فكرية، مقاربات في الحداثة والمثقف**، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط01، 2008.

14- غي روشيه، **مقدمة إلى علم الاجتماع العام**، ترجمة: مصطفى دندشلي، ج2، مكتبة الفقيه، بيروت، ط2، 2002.

المجلات العلمية:

1- أنطوان سيف: **المثقفون العرب و الربيع العربي**، حلقة نقاشية، مجلة المستقبل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

2- برهان غليون: **ميلاد عالم عربي جديد**، مجلة الدراسات الفلسطينية، فلسطين، ربيع 2011.

3- نور الدين زمام: **حول سوسيولوجيا المثقف الجزائري**، مجلة إضافات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، العدد الأول، 2000.

المعاجم العلمية :

1-جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

2- جيل فريول، **معجم مصطلحات علم الاجتماع**، ترجمة: أنسام محمد اسعد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2011.